الاغاني ووفيات الاعيان

موازنة بين كتاب الاغاني لابي الفرج الاصبهاني وكتاب وفيات الاعيان لابن خلكان

توطئة في ان تراجم النبهاء منابت النجاح

هي تراجم النبهاء في كل علم وصناعة وشأن شُعَل الرغبات الخامدة واثارة الهمم الجاثمة وايقاظ العزائم الراقدة تبعث على اقتصاص آثارهم واستقصاء اخبارهم لانتهاج مناهجهم تشوقاً الى الانتظام في سلكهم والاحصاء في عدادهم وذلك بالاحتذاء على مالهم من الاساليب المستطرفة والتذرّع بما تذرّعوا بهِ من الذرائع الناجحة والوسائل الموصلة. فهم المصابيح الناسخة لدُجُنّات الاضاليل والهداة المستهدون الى اقوم سبيل

فلا جرم ان العالم والمنشئ والشاعر اذا دأب كل منهم مطالعة كلام المبرّزين من اهل فنهِ واعمل بصيرتهُ في استطلاع اسرار كلامهم ودقّق النظر في تعرّف مناحيهم وذلك بان يعرض اقوالهم على مقتضيات المغازي فيها والاغراض منها وتدبّر حق التدبر جميع الاحوال المتعلقة بها من سابقةٍ ولاحقةٍ ومرافقةٍ وتبيّن مستدعياتها برزت لهُ حقائق العلم ومناهج الانشاء وطرق الشعر بالوجوه السوافر فينكشف لهُ عندها ما كان غامضاً من دقائق العلم ويظهر لهُ بدائع من فنون الكتابة والنظم لم يسبق لهُ بها عهد حتى تمكنهُ من اقتناص الشارد واستدناء البعيد وتذليل الجامح وربما اقدرتهُ على اختراع وجوهٍ للبحث والنثر والنظم اشد التحاماً بالنفوس من بعض الوجوه التي تقادم عهدها وطال عمرها وطرأت على الناس عوائد وحالات لا تطيب معها مقابلة تلك الوجوه ولا تهشّ لها القلوب

وكذا قل في الاطبّاء والصناع وارباب الحلّ والعقد ايضاً. فاذا اطلّع الطبيب على اقوال حرّاص الحياة وعرف ما استُحدث من ادوات الجراحة واحاط علماً بما اخترعهُ حذّاق الجراحين من الكيفيات المقللة للألم ومشى في العلاج على طريق من حنّكتهم الخبرة وهدتهم التجربة واقتدى بهم في الرأفة بالاعلاّء وجهد النفس في تخير الوسائل المخففة لآلامهم والادوية الكافلة بردّ الادواء عنهم اطمأنت اليهِ القلوب ووقفت ببابهِ عجلات المرضى وهمى عليهِ سحاب الغنى وارتفعت في اطراف البلاد اصوات الثناء عليهِ

واما صاحب الحلّ والعقد فاذا التزم الاقتداء بسيَر العادلين الحازمين ممن تولى شؤون الخلق وسمت نفسهُ الى ان يُعدّ فيهم ويحسب من طبقتهم اصغى الى خطيب العدل وأتمر اوامرهُ

وازدجر بزواجره واصمّ اذنهُ عن خطيب الهوى واغلق بابهُ دون اهل المطامع واتخذ لهُ بطانة من ذوي قرابة الحق وعشيرة النزاهة وقبيلة الكرامة حتى تصبح البلاد التي يتولاها جنة الله في ارضهِ وينتشر اهلها تحت ظلّ الاطمئنان في طلب معاشهم. لا يخافون ان يضيع لهم مال او يهلك لهم حق . يسيرون في طرق آمنة وينقلبون في قرى ومدن مطمئنة لا يجترئ عليهم لئيم ولا يخطف ارواحهم غادر مغتال ولا يحتال عليهم محتال . فمثل هذا الحاكم اريكة تجد في كل قلب وطاعة يطيب معها جهد القرائح في فنون اطرائهِ بل يهون معها بذل الروح في سبيل ارضائهِ وفوق ذلك يكتب اسمهُ في سفر من رفع لواء العدل من الحكام ويثبت ذلك في صحيفة الدهر

والتاجر اذا اتّبع سيَر من اصابوا بالتجارة القناطير المقنطرة من الذهب من مثل روتشلد وغيرهِ من اهل البيوتات التجارية المشهورة في العالم . وصاحب العقار من اهل الزراعة اذا استقصى اخبار من امتلكوا الضياع والمزارع والقرى حتى اضطروا الى اجتلاب حتف كثير ليعمروا ارضهم بالحرث والزرع والحصاد وغير ذلك من الاعمال اللازمة للاستثمار واستخراج كنوز الارض حتى يكون كل منهم كملك صغير في مملكة صغيرة يسلك ولا شك مسالكهم اجتهاداً واقتصاداً ويصبر صبرهم في طريق الاستغناء ولا يبرح يعاني المشاق ويزيل العراقيل والعقبات حتى يقتطع بثمرات سعيهِ وكدهِ غير مذموم ولا ملوم

وبناء على ما اسلفناهُ عني الناس في ارجاء المعمور قاطبة بكتابة تراجم النبهاء والفضلاء والوزراء والملوك وجعلوا تلك السير ركن التاريخ ومهبّ رياح النشاط ولقد حسن في نفوس الغابرين ذلك كما حسن عندنا ما نطالعهُ في " المقتطف " من اخبار رجال المال والاعمال

وكفى بك دليلاً على كثرة الفوائد المتأتية عن تراجم المشاهير انهُ لم تنفرد بهذا الصنيع امة ولم تستأثر بهِ مملكة فللافرنج المعاجم الواسعة والكتب الحافلة في تراجم المشاهير حتى ان معاجمهم المختصرة من مثل معجم "بطرس لاروس" اللغوي الافرنجي منقسمة الى قسمين احدهما لمواد اللغة والآخر لتراجم المشاهير

وفي اللغة العربية كتب شتى تتضمن تراجم المشاهير من العلماء والشعراء والبلغاء وغيرهم لا نتعرض في هذه المقالة لشيء منها الاّ كتاب الاغاني وكتاب وفيات الاعيان وان اختلف الغرض منهما في التأليف فقد اتفقا في النتيجة

وصف كتاب الاغاني

هذا الكتاب على ما فيهِ من الفوائد لارباب الايقاع والسماع هو مادة للكتابة غزيرة . وثمرة للأدب جنية نضيرة . اخرجتها المائة الرابعة للهجرة ببراع من ينظم قلائد الكلام كما تشاء

البلاغة ويزفّ عرائس المعاني بابهى المعارض المستحلاة في الاذواق السليمة ابي الفرج الاصبهاني الاصل البغداديّ المنشإ المتّصل النسب بعبد مناف القرشيّ وجدّهُ مروان بن محمد آخر خلفاء بني أُميّة . اودعهُ اخبار اربعة عشر واربعمائة رجلٍ من الادباء والشعراء والمغنّين . والمغزى في كتابهِ ذكر الاغاني باخبارها ومن ثمّ سماهُ بهذا الاسم واما الاخبار فقد جاء بها توسعةً للفائدة وتفكهةً للنفس . وقبل ان نستوفي الكلام في وصفهِ نثبت قطعةً من مقدمتهِ تتبين منها تهذيب عبارتهِ ونقاوة الفاظهِ كما تتبيَّن مذهبهُ في تصنيفهِ وهذه هي بالحرف قال رحمهُ الله

"هذا كتاب الفهُ عليُّ بن الحسين بن محمد القرشي الكاتب المعروف بالاصبهاني وجمع فيهِ ما حضرهُ وامكنهُ جمعهُ من الاغاني العربية قديمها وحديثها ونسب كل ما ذكرهُ منها الى قائل شعرهِ وصانع لحنهِ وطريقتهِ من ايقاعهِ واصبعهِ التي ينسب اليها من طريقتهِ واشتراكهِ ان كان بين المغنين فيهِ على شرح في ذلك وتلخيص وتفسير للمشكل من غريبهِ وما لا غنى عن علل اعرابهِ واعاريض شعرهِ التي توصل الى معرفة تجزئتهِ وقسمة الحانهِ ولم يستوعب كل ما غُنّي بهِ في هذا الباب ولا اتى بجميعهِ . واعتمد سبب هذا على ما وجد لشاعرهِ او مغنيهِ والسبب الذي من اجلهِ قيل الشعر وصُنع اللحن خبرًا يستفاد ويحسن بذكرهِ ذكر الصوت معهُ على اقصر ما امكنهُ وابعدهِ من الحشو والتكثير بما تقل الفائدة فيهِ . وأتى في كل فصل من ذلك بنُتَف تشاكلهُ ولمع تليق بهِ وفقر اذا تأملها قارئها لم يزل متنقلاً بها بين جدٍّ وهزل وآثار واخبار وسير واشعار متصلة بايام العرب المشهورة واخبارها المأثورة وقصص الملوك في الجاهلية والخلفاء في الاسلام تجمل بالمتأدب معرفتها وتحتاج الاحداث الى دراستها ولا يرتفع من فوقهم من الكهول عن الاقتباس منها اذ كانت منتخلة من غرر الاخبار ومنتقاة من عيونها ومأخوذة عن مظانها ومنقولة عن اهل الخبرة بها . فصدّر كتابهُ بها وبدأ فيهِ بذكر المائة الصوت المختارة لامير المؤمنين الرشيد وهي التي كان امر ابرهيم الموصلي واسمعيل بن جامع وفليح بن الصوراء باختيارها لهُ من الغناء كلهِ"

وقال ابن خلكان في وصف كتاب الاغاني "قد وقع الاتفاق انهُ لم يعمل في بابهِ مثلهُ يقال انهُ جمعهُ في خمسين سنة وحملهُ الى سيف الدولة بن حمدان فاعطاهُ الف دينار واعتذر اليهِ . وحكي عن الصاحب بن عباد انهُ كان في اسفارهِ وتنقلاتهِ يستصحب حمل ثلاثين جملاً من كتب الادب ليطالعها فلما وصل اليهِ كتاب الاغاني لم يكن بعد ذلك يستصحب سواهُ استغناء بهِ عنها

وقال في مؤلفهِ كان يحفظ من الشعر والاغاني والاخبار والآثار والاحاديث المسندة والنسب ما لم ارَ قط من يحفظ مثلهُ . ويحفظ دون ذلك من علوم أُخر منها اللغة والنحو

والطرافات والسير والمغازي ومن آلة المخادمة شيئاً كثيراً مثل علم الجوارح والبيطرة ونتفاً من الطب والنجوم والاشربة وغير ذلك . كانت ولادتهُ سنة ٢٨٤ للهجرة وفي هذه السنة مات البحتري الشاعر وكانت وفاتهُ ببغداد سنة ٣٥٦

فهو من معاصري المتنبي وابي اسحق الصابي وابن عبد ربهِ المتوفّى بقرطبة من بلاد الاندلس ومات بعد ولادة بديع الزمان بثلاث سنين

وصف كتاب وفيات الاعيان

هذا الكتاب هو القول الشارح لاحوال افاضل الادباء والمعرّف لمقام ارباب القلم من الكتاب والشعراء واصحاب الآثار من النبلاء يضبط اسم المترجم وينسبهُ ويذكر آثارهُ ومولدهُ ومتوفاهُ بعبارةٍ مهذبةٍ رشيقة فتعرف من وصف الرجل حال العلم في عصرهِ . ومرتبة الادب في مصرهِ وعبارة اخرى هو معجم تعرف بهِ انساب الاعيان وضبط اسمائهم وسنو وفياتهم ومواليدهم ثم انهُ روضة الاديب ونجعتهُ وذخيرة المشيء وعدتهُ كما يشعر بذلك من تصفحهُ وهو ثمرات المائة السابعة للهجرة وقد ضمّ اليهِ محمد بن شاكر بن احمد الكتبي المتوفى سنة ٧٦٤ للهجرة ذيلاً يحوي سيّر من اغفلهم ابن خلكان وهو جزآن يبلغ عدد صفحاتهما ٦٢٩ صفحةً فصار الكتاب مع ذلك الذيل متضمناً تراجم ١١٠٠ من اعيان الناس . وقد ترجم مؤلفهُ الشيخُ نصر الهوريني قال "هو من بيت كبير بناحية إربل مدينة بالعراق على الشاطىء الشرقي من نهر دجلة بالقرب من الموصل من جيتها الشرقية . وهو قاضي القضاة شمس الدين ابو العباس احمد بن ابراهيم بن ابي بكر بن خلكان الاربلي الشافعيّ احد الائمة الفضلاء . والسادة العلماء . والصدور الرؤساء . تولّى قضاء الشام ثم عزل عنهُ بابن الصائغ ثم عزل ابن الصائغ بعد سبع سنين بهِ . خرج من بلدهِ سنة ٦٢٦ هـ ودخل حلب تلك السنة واقام فيها سنين وكان سنة ٦٣٣ هـ مقيماً بدمشق وفي سنة ٦٣٧ هـ كان مقيماً بمصر . ولد باربل سنة ٦٠٨ هـ وتوفي بدمشق سنة ٦٨١ هـ ودُفنَ من الغد بسفح قاسيون ولما رجع الى منصب القضاء في الشام قال سعد الدين النارتي

أذقتَ الشام سبع سنين جدباً غداة هجرتهُ هجراً جميلا
فلما زرتهُ من ارض مصرٍ مددتَ عليهِ من كفّيكَ نيلا"

انتهى بعض حذف

واليك لمعةً من دباجة كتابهِ لتكفل ببيان حالهِ قال " هذا مختصر في علم التاريخ دعاني الى جمعهِ اني كنت مولعاً بالاطلاع على اخبار المتقدمين من اولي النباهة وتاريخ وفاتهم ومولدهم ومن جمع منهم كلّ عصر . فوقع لي منهُ شيء حملني على الاستزادة وكثرة التتبع فعمدتُ الى

مطالعة الكتب الموسومة بهذا الفن . واخذتُ من افواه الائمة المتقنين لهُ ما لم اجدهُ في كتاب . ولم ازل على ذلك " الى ان يقول " ولم اقصر هذا المختصر على طائفة مخصوصة مثل العلماء والشعراء بل كل من لهُ شهرة بين الناس ويقع السؤال عنهُ ذكرتهُ واتيت من احوالهِ بما وقفت عليهِ مع الايجاز كيلا يطول الكتاب واثبت وفاتهُ ومولدهُ ان قدرتُ عليهِ . ورفعت نسبهُ على ما ظفرت بهِ . وقيدت من الالفاظ ما لا يؤمن تصحيفهُ . وذكرت من محاسن كل شخص ما يليق بهِ من مكرمة او نادرة او شعر او رسالة ليفكهَ بهِ متأملهُ ولا يراهُ مقصورًا على اسلوب واحد فيملهُ والدواعي تبعث لتصفح الكتاب اذا كان منتنًا" ثم يقول "وكان ترتيبي لهُ في شهور سنة ٦٥٤ بالقاهرة المحروسة "

نظرة في الاغاني والوَفيات

مما يدل على عناية العرب بوصف الكتب واصحابها انهم قد وضعوا كتبًا في هذا الشأن من مثل كتاب كشف الظنون في اسماء الكتب والفنون والفوا مؤلفات في معرفة طبقات العلماء والشعراء والفقهاء والحفاظ والثقات والاطباء لكنهم لم يتعرَّضوا لبيان ما اغفل اصحابها من الامور التي لا بد منها لاستيعاب المعرفة بحال المترجمين او لتوسيع الفن

واما كشف الظنون فالتزم تسمية الكتاب وصاحبهِ وذكر وقت وفاتهِ وعدد ابوابهِ واول عبارة من مقدمتهِ واليك مثالاً لهُ قال في كتاب ابن مسكويه "تهذيب الاخلاق وتطهير الاعراق للشيخ ابي علي احمد بن محمد المعروف بابن مسكويه المتوفَّى سنة احدى وعشرين واربعمائة ويشتمل على ست مقالات اولهُ اللهم انا نتوجَّه اليك الخ . وهو كتاب مفيد في علم الاخلاق" والاقتصار من وصف الكتب على هذا لا يكفي لتحسين التصانيف واحكام التآليف فلو فصل النسب والاسانيد عما يروي من الاخبار والقصص لقرب منالهُ ولم يفُت المؤلف شيء مما قصدهُ وتحراهُ . ولو ضبط الاسم وذكر سنة المولد والوفاة لعلا بذلك قدر كتابهِ وتفتحت للاستفادة منهُ ابواب لم تكن لتنفتح بدونهِ . لكن المؤلف لم يتنبَّه لهذه الاغراض من عند نفسهِ . فاغفل ما اغفل لا عن قصر باعهِ ولا عن قلة اطلاعهِ بل لانصرافهِ الى مقاصد هي الداعية الى تصنيف الكتاب المشار اليهِ وعذرهُ في ذلك ان مثل من لهُ ارب يحاول بلوغهُ مثل من يسدِّد سهمهُ الى الهَدَف فلا يحوِّل نظرهُ عنهُ مخافة ان يطيش سهمهُ

فهذا الكتاب من حيث الفائدة التاريخية وضبط اسماء المترجمين وبعد المسافة على طالب الفائدة منهُ احط من كتاب الوَفيات قدرًا فاغفال هذه الاشياء في التراجم مجحف بالفائدة المقصودة .

واما من حيث الفوائد اللغوية والانشائية فهو اعلى من كتاب الوفيات قدرًا . واغزر منهُ مادةً واوسع رواية فاذا توفر المرء على مطالعتهِ سنةً اغترف من بحرهِ من العلم بالعادات والاخلاق وضروب البلاغة ما شاء الله

واذا التفتَّ الى تحرّي الصدق في الرواية لم تجد في اصحاب السيَر والتراجم من يفضل الاصبهاني . ألا وهو يورد لكل رواية من الاسانيد الصحيحة ما لا يمكن ردُّهُ

وقد ورد فيهِ من مفردات اللغة كثير مما خلا منهُ اكبر معاجم اللغة كاللسان والتاج ثمَّ انهُ انفرد بفائدة لا اثر لها في الوفيات . ألا وهي ذكر الالحان وصانعيها واخبار المغنين من مثل معبَّد وابي اسحق الموصلي وابن جامع . وفي ذلك من النفع لاهل الايقاع ما فيهِ

على ان هذا الكتاب النفيس الممتّع يحتاج الى ان يُعمل لهُ جدول اصلاح لما وقع فيهِ عند الطبع من الاغلاط التي ربما يلتبس كثير منها على الطبقة المتوسطة من الادباء

وجدير بمن تبعثهُ همتهُ لنشر كتاب لهُ مثل هذه المرتبة العالية بين كتب الادب ان لا يألو جهدًا ولا يدَّخر وسعًا في ابرازهِ للناس بتمام رونقهِ وجميل صحنهِ

وفي النية اذا انسأ الله في الاجل ان اخدم هذا التأليف الشريف بامرين احدهما عمل جدول الاصلاح المشار اليهِ والآخر جمع ما جاء فيهِ من المفردات اللغوية التي لم نعثر عليها فيما بايدينا من كتب اللغة مختصراتها ومطولاتها

واما كتاب الوفيات فقد انفرد بذكر مؤلفات من يترجم من العلماء وبذكر وفاة كل منهم واما المولد فقد لا يتسنى لهُ العلم بهِ فيغفلهُ كما صرح بذلك في صدر كتابهِ . ومن محاسنهِ انهُ يفصل النسب عن الوصف و يضبط الاسماء فيدرك الغرض منهُ أسرع ما يمكن

لكن فيهِ غمزًا يستغرب اجتماعهُ مع ما قصد بالكتاب من تقريب المسافة على الطالب . وهو صعوبة العثور على من يراد كشف اسمهِ للاطلاع على ترجمتهِ فمن كانت لهُ كنية يذكرهُ في باب الحرف الاول من اسمهِ . والمترجم انما يكون مشهورًا بكنيتهِ كأبي الاسود الدؤلي فانهُ يثبت ترجمتهُ في باب الظاء لان اسمهُ ظالم . وكابن عبد ربهِ فانهُ يذكر ترجمتهُ في باب الهمزة لان اسمهُ احمد وحيص بيص الشاعر يذكر في حرف السين لان اسمهُ سعد وكذا ابو دلامة فانهُ يترجمهُ في باب الزاء . فهذا الصنيع يوشك ان يكون من باب اغلاق الباب في وجه المدعو . ذلك من حيث ان هؤلاء الاشخاص انما هم معروفون بكناهم والقابهم لا باسمائهم

ولا اثر لهذا الاشكال في كتاب الاغاني البتة واما ذيل الوفيات فلم يتكلف لهُ مؤلفهُ من البحث والتنقيب لاستيعاب احوال المترجم ومعرفة مولدهِ ووفاتهِ مثل ما تكلف لذلك ابن

خلكان فهو على كثرة ما فيهِ من لطائف النثر والنظم لا يتعدى ان تكون منزلتهُ من الوفيات منزلة تكملة الثوب بقطعة ليست على لونهِ بل على لون يقاربهُ

ويؤخذ مما ذكرناهُ ان وصف الكتب ببيان ما فيها من الحسنات والسيئات يعد من اكبر الاسباب الداعيـة الى ارتقاء التأليف الى اسنى مقامات المجد اذ يظفر المؤلف باقبال السواد الاعظم على تصفح كتابهِ والتزود منهُ . فيصيب من ثمَّ ثراه وعلاه . وهذه هي الضالة التي ينشدها ارباب القلم ولا سيما لهذا العصر

بيروت سعيد الخوري الشرتوني

حكم وامثال

معربة عن اللغة التركية

الانسان لا لحمهُ يؤكل ولا جلدهُ يلبس فماذا فيهِ عدا هذا غير حلاوة اللسان

من يأكل وهو شبع يحفر قبرهُ باسنانهِ

انتقل الكسلان من زاوية الى اخرى فقال " قد سحتُ سياحة "

من يسلم رأسهُ الى المزين الغبي يجب ان لا يكون القطن في جيبهِ قليلاً

ابن الاسد اسد

من يسقط في الطريق المستقيم ينهض سريعاً

الخصام ينشأ من " انا " و" انت "

اذا كان الرفيق صالحاً تكون بغداد قريبة

اذا لم تكن اللحية موازية للشاربين ماذا يعمل المزين ؟

الكلام الصادق لا يحتاج الى قسم

الحق مثل الفلين لا يغرق

دعوا الحمار الى العرس فقال : يلزمهم حطب او ماء

التوبيخ العادل لا يصدع الرأس

المرء يخدع المرء مرة واحدة

يكبر الرغيف حينما يكون العجين كثيراً

اذا اغلق الله باباً فتح الفاً

الماء ينظف كل شيء الاَّ اسوداد الوجه

من يذهب الى وليمة الذئب يجب ان يصحب كلبهُ معهُ

الحرة محالة ولكن الغارة ليست حمقى

الغضب حلو وثمرهُ مر والنصيحـة مرة وثمرها حلو

بالصبر يصير الحصرم حلوى

بعد فقد الشيء تعرف قيمتهُ

من لم يطعم المر يطعم الفار

من لم يعان الاكدار لا يعرف قدر المسار